لبنان

المشرق

العدد رقم 8_9

1 أغسطس 1931



تصفح العدد



بقلم الاب توتل اليسوعي

١

حكم الاتراك

على اثر حملة عمر باشا الكرواتي[1] ، قبض الاتراك على زمام الامر في دير الزور ؛ وفي السنة ١٨٦٤م (١٢٨١هـ) حضر اليها والي حلب ، ثريا باشا ، وعهد بادارة شؤونها الى عمر باشا ، قائم مقام عسكرية حلب. واليك ، منذ ذلك العهد ، لائحة الحكام الذين تألبوا في تدبير البلدة ، مع اهم ما حدث في ايامهم الى آخر الحرب العظمى ، عهد خروج الاتراك من الدير:

عمر باشا	سنة ١٨٦٤م (١٢٨١هـ)	حكم ستة اشهر.
خليل بك	١٨٦٥ (١٢٨٢)	انشأ دار الحكومة، وثكنة للجند، ومستشفى.
احمد حلمي افندي	١٨٦٦ (١٢٨٣)	حكم ستة اشهر.
عثمان افندي	١٨٦٦ (١٢٨٣)	
حسني باشا	١٨٦٨ (١٢٨٥)	حكم ستة اشهر ، ومات في الدير.
ارسلان باشا	١٨٦٨ (١٢٨٥)	اخضع القبائل: الجبور، والعقيدات ، وشمر ، وعنزة ، والموالي وغيرهم. وجعل العشارة والرقة مركزي قائمقامية والحقهما بلواء الدير ، ومات.
عمر باشا	١٨٦٨ (١٢٨٥)	بنى المكتب الرشدي والمنتزه العمومي.

١) راجع العدد السابق من المشرق.

قاسم باشا	١٨٧٤ (١٢٩١)	
حسين باشا الحلبي	١٨٧٦ (١٢٩٣)	
علي باشا الشريف	١٨٧٧ (١٢٩٤)	على ايامه انفصل لواء الزور عن حلب ، ثم تعلق بالاستانة مباشرة سنة ١٢٩٧هـ.
حسن باشا الفريق	١٨٧٩ (١٢٩٧)	
محمد رشيد باشا	١٨٨١ (١٢٩٩)	
يوسف طالع باشا	١٨٨٣ (١٣٠١)	
ابراهيم باشا	١٨٨٣ (١٣٠١)	شاد مكتبين: صناعياً وانائياً.
احمد توفيق باشا	١٨٨٥ (١٣٠٣)	رمم ما احدثه فيضان الفرات من الخراب.
حافظ باشا	١٨٨٩ (١٣٠٧)	
صالح باشا	١٨٨٩ (١٣٠٧)	ربط الدير بالسلك البرقي مع حلب والاستانة
مصطفى رفقي باشا	١٨٩٣ (١٣١١)	
اسماعيل زهدي بك	١٨٩٣ (١٣١١)	انشأ عشرين مكتباً في القرى ، والمستشفى والجامع الحميدي في الدير.
احمد شكري باشا	١٨٩٧ (١٣١٥)	مات في وظيفته.
احمدرشيد باشا	١٩٠٠ (١٣١٨)	سعى بمباشرة بناية الجسر الكبير.
حسين محرم بك	١٩٠٢ (١٣٢٠)	
راشد باشا	١٩٠٣ (١٣٢١)	
جمال بك	١٩٠٨ (١٣٢٦)	
جلال بك	١٩١٠ (١٣٢٨)	
علي سعاد بك	١٩١٢ (١٣٣١)	
زكي بك	١٩١٦ (١٣٣٥)	وهو الذي امر بقتل الالوف من الارمن.
عبد القادر بك	١٩١٧ (١٣٣٦)	وهذا ايضاً اجهز على الارمن ، ثم دارت الدائرة عليه فحاكمه الكماليون واعدموه.
حامي بك	١٩١٨ (١٣٣٧)	

اخذنا هذه اللائحة عن مقال ظهر في المشرق ، سنة ١٩٠٧ ، بقلم السيد عبد الكريم نوري ، استاذ اللغة الافرنسية سابقاً في دير الزور ، وعن تعليقات وافانا بها عن سجلّات دير الزور الرسمية شقيقنا السيد جوزف توتل. وقد وقع بين هذين المصدرين بعض الاختلاف في التواريخ وفي ترتيب تعاقب الحكّام . وهذا الاختلاف يظهر ايضاً عند المقابلة بين لائحتنا واللائحة التي وضعها المستشرق

موسيل[١] وقد يكون سببه سرعة عزل الحكام عن مناصبهم ، وتبلبل جدول اسمائهم في السجلات الرسمية ، فلا يظهر اسم الباشا مطبوعاً في السلنامه الرسمية الا ويكون قد اخلى المكان لغيره . ومن عدد الحكام الوافر (٢٩) الذين تناوبوا الحكم في مدة زهاء نصف قرن ، يفهم القارئ بعض اسباب جمود تلك البلاد السياسي والاقتصادي على ايام الاتراك . فان تغييراتهم المتواصلة دالة على عدم اهليتهم للقيام بالمهمة المعهود بها اليهم ، او بالاحرى على قلة اكتراث الحكومة المركزية للانحاء . النائية ورب حاكم اتى الى دير الزور منفياً وكان في الغالب يجهل لغة البلاد ، فلا يروق له فيها طعام ولا شراب ، وما ان يملأ جيوبه من جباية اموالها حتى يطمح ببصره الى وظيفة غير التي هو فيها ، فيتغير من موضعه بعد اشهر ، شأن الولاة على عهد الاتراك سحابة القرون .

حكام الدير من نهاية الحرب الكبرى الى يومنا[٢]

في ١١ كانون الاول سنة ١٩١٨ ، اي شهراً بعد انعقاد الهدنة بين المتحالفين ، خرج الاتراك من دير الزور ، فدخلها الامير علي ناصر ، وشكل حكومتها مرعي باشا . وفي ٧ كانون الثاني من السنة ١٩١٩ اتاها القائد الانكليزي الكابتن كارفر ، وبمعيته ضباط وانفار من الجنود ومدرعتان ، واقاموا فيها الى ٢١ كانون الاول سنة ١٩١٩ . في ذلك العهد ، هاجم رمضان الشلاش دير الزور من قبل الحكومة الفيصلية ، واخرج منها الانكليز قسراً ، وحكمها شهرين او ثلاثة . وتولى الحكم في الدير في السنة ١٩٢٠ المتصرفون : مولود باشا المخلص ، ومظهر بك ارسلان ، ومصطفى القنواتي ، والحاج فاضل العبود من اشراف الدير .

وفي ربيع ذلك العام دخل الافرنسيون دير الزور ، وعلى رأسهم الكومندان ترانكا (وهو المستشار الاداري ، حالاً ، ووكيل المندوب السامي موقتاً في الدير) ومعهم مدفعان ، وبرفقتهم الامير مجحم بن مهيد شيخ عشيرة

١) راجع كتابه على الفرات الاوسط ، ص ٣

٢) عن رسالة للسيد عبدالكريم لوله ، فله منا الشكر .

العنزة مع عشائره . فاستقبلهم الاهلون بالترحيب ، وأيد ترانكا الحاج فاضل في وظيفته.

وفي اثنائها خرج الاتراك من اورفا ، وحملوا على الرقة ، وقاربوا منها دير الزور ، وضربوها بمدافعهم . فانضم عشائر محجم واولاد ابراهيم باشا الى الافرنسيين ، ووقفوا في وجه الاتراك وقابلوهم بمدافعهم.

لكن العرب لم يجمعوا كلمتهم على مصافاة الافرنسيين ، فان عشائر ابوهليل وابو عمر هاجموا معسكرهم وقتلوا الضابط ريشارد . واعاد ابو عمر الكرة وهاجموا مركز الطيارات ، وقتلوا الكابيتن روسي وغيره ، واحرقوا سبع طيارات . فخرج عليهم من حلب الجنرال دي بيوفر بالفين وخمسة جندي وأدبهم (تشرين الثاني سنة ١٩٢١)

وتعاقب المتصرفون في الدير بالتتابع التالي : خليل اسحق (١٩٢٢) . الامير خطاب الجزائري (١٩٢٣) — نبيه بك المارديني (١٩٢٤) — جميل الدهان (١٩٢٦) — نافع المقدسي (١٩٢٨) — ابي الخير الجندي (١٩٣٠) - نسيب بك الخطيب (١٩٣١) . وولي النظام العسكري فيها اذ ذاك الكولونيل دي غران رو ، القائد العام الحالي ؛ والكولونيل اندريا ، الجنرال الحالي ؛ والكولونيل ريبر ، واخيراً الجنرال كاله.

ومنذ زهاء اربعين سنة دخلت بلدة الدير في عهد عمران وتجدد ، قد يوقفنا على تطوراته حديث الرواد المعاصرين عنها ، ومراجعة ما جاء في البلاغات الرسمية .

حديث الرواد المعاصرين عن الدير

في ٢٣ كانون الاول ١٨٧٩ زار الدير ساخو[1] ، الرائد الالماني ، فوصفها قال : الدير مدينة صغيرة ، عدد بيوتها ١٥٠٠ ، واكثرها حقيرة ، وهي مبنية بالحجارة واللبن ، وعدد سكانها يتراوح بين الخمسة والستة آلاف . موقعها على

---

١) راجع كتابه عن سورية وما بين النهرين ، ١٨٨٣ ، ليبيك ، ص ٢٦١ وما بعدها ، وينسب ساخو عمار القشلات لارسلان باشا ، اما موسيل فينسبه لعمر باشا .

شاطئ الفرات الغربي حيث ينقسم الفرات . حلّ بها الخراب عند حملة عمر الكرواتي عليها ، فرتقت فتقها ورمّمت خرابها وظهرت جديدة كأنها حديثة العهد بالوجود . ليس فيها اثر لانقاض تنبيء بتاريخها القديم او باخبار القرون الوسطى سوى بقايا سد حجري ظاهرة في المياه ، جنوبي المدينة وشمالها . ويغلب على الزعم ان انقاض المدينة القديمة لا تزال طامسة تحت بناية الجامع المتوسط البلدة ، وما حوله من المساكن المبنية جنوباً وشمالاً على جانب الفرات . وعلى بعد من هناك ، نحو الجنوب ، بناية ضخمة ، مربعة الزوايا ، فيها فناء ، وطرفها الغربي محاذٍ للنهر ، هي السرايا . وفيها دار السجن ، وهي على يسار الآتي الى البلدة من الجسر . ومن باب السرايا منفذ الى السوق . اما المدينة الجديدة فمشيدة على جانبي جادة واسعة ممتدّة من الشمال الى الجنوب ، غربي المدينة القديمة . فيها خانات ، وبستان واسع ، ودار الحاكم وهي محكمة المندام على الطراز الاوربي . وابعد من ذلك شمالاً القشلة العسكرية . اما الكنائس فموقعها جنوبي البلدة بغرب ، ومن ورائها حدود صحراء تدمر ، واكامها ورمالها الجرداء الماحلة .

كان عدد المسيحيين آنذاك يناهز المئة ، اتوا الى الدير من حلب والموصل ووجد ساخو في السوق جميع الحاجيات من قمح وشمير وذرة وفحم . . . حتى الخمرة الافرنسية الحمراء . وكان فيها خياط يخيط على النسق الافرنجي

وكانت الدير في السنة السادسة منذ توطدت فيها اركان السلطة التركية ، فصارت متصرفية مرجعها ولاية حلب واسمها الرسمي الزور . وكانت تشمل البلاد الواقعة بين تدمر والدير وميادين وعشاره وابو كمال والخابور وسنجار ونصيبين وويرانشهر ورأس العين والرقة . وكان تحت حكم باشا الدير : قائمقام في البصيرة ، ومدير في الشدادية ؛ وقائمقام في الميادين ، ومقاطعته تدعى العشارة ، لانه كان مقيماً ، سابقاً ، في المحلة المدعوّة بذلك الاسم ، الواقعة جنوبي الميادين على الفرات ، وهي الآن خراب ؛ وقائمقام في البوكمال ، على شاطئ الفرات الغربي ، على بعد خمس ساعات من الصالحية .

وتحصن الاتراك في دير الزور وتسلحوا فيها على البدو ، اعني بهم العنزة في

سورية ، وشمر في ما بين النهرين

وعند زيارة ساخو الدير ، كانوا يتحدثون باستعمار اراضيها ويحاولون تحضير الاعراب على ضفاف الفرات فيشغلونهم في زراعة الاراضي. ومن وراء ذلك الاستعمار من المنافع الاقتصادية والسياسية ما لا يخفى على بصير ، لانه يقطع دابر الفتن والمشاحنات الناشئة غالباً من حياة البادية من عدم التقيّد فيها بنظام اجتماعي متين ، ويعود بالخير على البلاد بما يؤديه لها من زيادة محصولات الاراضي المفتوحة للزراعة . واخذوا يضعون اساس مشاريع التحضير ، فشادوا الثكنات العسكرية ، وعمّروا في جوارها البيوت السكنى . ولكن قلة المال في الخزينة حالت دون انجاز المشروع بالنجاح .

ونشبت في غضونها الحرب بين المسكوب والدولة التركية فحوّلت نظرها تماماً عن مصالح بلاد الفرات واهملت الزور وشؤونه . فعادت لتعترها لميس ، وهجر العرب جوار الثكنات وتركوا ديارها خراباً بين الرقة والدير .

هذا عن احوال المدينة السياسية والزراعية ، اما عن علاقاتها بسائر الولايات وسبيل الاتصال بها فقد تخطّى الى الكلام عليه ، البارون الالماني فون اوبنهايم [1] :

في صيف السنة ١٨٩٣ وصل الى دير الزور عن طريق تدمر ، ووصف قدومه اليها بعد مشاق السفر في بلاد تدمر فقال : نحو الساعة السابعة مساء ، بلغنا قمة الاكام الواقعة بين الفرات والبادية والمنحدرة نحو النهر . فاشرفنا من اعاليها على بساتين البلدة وبيوتها ، وعلى الفرات ومياهه الصفراء . واشعرنا بعاطفة فرح ذكرتنا بفرح العشرة الآلاف لما اكتشفوا البحر بعد تيههم العظيم في بلاد الاناضول . ما اعذب مياه الفرات وما احلاها لمن قضى اياماً واسابيع في مجاهل البادية يتكبد مرارة العطش . وما ابهج منظر امواجها للعيون ! من سخنة الى الدير ، كانت الطريق معلّمة ببقايا هياكل الخيل والجمال التي لم تقوَ على قطع المراحل المقفرة ، فسقطت وهلكت في سيرها ! وها ان منظر المياه والنبات

١) راجع كتابه : من البحر المتوسط الى خليج العجم ١ ، ص ٢٢٩

يكهرب اعصاب الخيل والرجال وسرعان ما نسير !

وصل اوبنهايم الى الدير نحو الساعة الثامنة والنصف مساء . فاختار منزله شمالي المدينة ، على شاطئ النهر ، في بستان اخضر جميل وقال: ما الذّ الاستحمام بالفرات لمن بلغ منه الحرّ والعطش مبلغه في الامس ، وكان اذا نضح وجهه بقليل من الماء امتصّ شاربيه المبتلّين حرصاً على بعض القطرات من الضياع . ان الجلوس وشرب الترجيلة على شاطئ النهر لنعيم بالنسبة للمشاقّ التي تكبدناها على طريق الشول .

وفي تلك السنة احصى اوبنهايم سكان الدير كما يلي(٢:٣٣٢) من ٦ الى ٧ آلاف فيهم ٧٠٠ مسيحي ، وهؤلاء يزدادون سنة فسنة ، وهم من سائر الطوائف المسيحية المعروفة في الشرق، ولهم كنيستان ، وكان للمسلمين جامعان احدهما حديث البناء بني في العام نفسه .

اية كانت في تلك الايام نفسية السكان في الدير ? قد يتاح لنا ان نعرفها مما كتبته عنهم رائدة انكليزية ، المس بل[1] ، زارت الدير في اذار سنة ١٩٠٨ ، على ايام ثورة فتيان الترك ، فتصدت في وصف رحلتها لما سمعته في البلدة عن تأثيرات سياسة حزب الاتحاد والترقي فيها ، وذكرت عناء البلاد وتعبها ومللها من نير الاتراك وتشاؤمها من المستقبل . وقالت: تحدثت الى احد اصدقائي من اعيان المسلمين في الدير عن الحالة السياسية فقال : بلغ احدنا الدعوة الى حزب الاتحاد والترقي فابى تلبيتها وقال : انا صاحب اشغال وهم اصحاب اقوال .

ثم قالت : ان المفكرين من اهل الدير يعتقدون انهم قادمون على عصر فوضى . وقال احدهم ان نظام السلاطين مضى وتلاشى . اما نظام حزب الاتحاد والترقي فواه ضعيف وتحت رماده نار الثورة والاضطراب . والثورة معناها اهراق الدماء . ويا لبني عثمان من الويل والدمار ! واعل السلام والامن يأتيان من اوربة !

---

١) راجع كتابها « مراد الى مراد » :

G. L. Bell, *Amurath to Amurath* ; *London*, *1911*, *p. 7*-.

فقالت له مس بلّ : الا قل ان السلام والامن الحقيقي هو الذي تستحوذه البلاد بجهودها.

فقال : وهل من امل ان يرى هذا العهد اولاد اولادي ؟ — اين الوحدة العربية ؟ ان اهل حلب ينظرون الى اهل الدير نظرهم الى الغريب الغير المرغوب فيه ، وكذلك اهل الدير ينظرون الى اهل دمشق ولا وحدة للامة العربية ، اما الاراضي وحالتها فهي مما يرثى له . لي املاك تقدر بخمسة عشر الف ليرة انكليزية وهل يوجد من يشتريها بخمسة عشر الف غرش ؟

***

هذا وان تشاؤم السكان تغيّر الى التفاؤل واخذوا ينظرون الى المستقبل بعين الامل منذ عهد الانتداب الافرنسي . واملهم اشدّ تعلقاً به من سائر سكان سورية ولبنان، لانهم لا ينفكون ساعة يشعرون بانه لولا وجود الجنود الافرنسية في الدير لاغار عليها العرب من كل صوب وفج .

وفي ٨ نيسان ١٩١٢ قدم دير الزور لويس موسيل ، عن طريق البادية ، فاذا هي غير ما عهدناها منذ عهد ساخو وروسو . قال :

الدير واقعة على شاطىء الفرات الايمن تجاه حديقة خضراء يربط بينهما جسر ، فيها ست مآذن بيضاء منتصبة وبساتين ، وحقول واقعة شرقيّ البيوت . اما القشلة فهي شمالي المدينة وبالقرب منها معسكر الشركس ، وفي شمالها الصالحية او بساتين صالح باشا . وبنايات البيوت في جانب المدينة الشمالي الشرقي عالية بارزة . وهذه اسماء احياء المدينة : محل الشيخ ياسين ، وابو عابد ، والرشدية ، والجامع الكبير ، والوسط ، وعبد العزيز . وسرايا الحكومة واقعة بين الفرات ومحل عبد العزيز . والجامع العمري قديم وهو في وسط البلدة .

ومن وجوه المسلمين بيت الفتية ، وبيت عبد العزيز ، وبيت خطار . ومرافق الارتزاق للاهلين على الاخص من التجارة . فانهم يبتاعون الصوف ، ويصنعون السجادات والحرامات للفلاحين وللبدو ، ويبتاعون سمن الماعز والغنم ويصدرونه الشام ، ويستوردون منها ومن حلب الموادّ المصنوعة في اوربة ، وعلى الاخص مصنوعات القطن والكتان . ويجلبون من بغداد التنبك والعباء الجميلة .

ويبتاعون في بيرجك «الكلكات» المشدودة فيحملونها قمحاً وشعيراً ، ويركبون الفرات فيبلغون الى الدير فالفالوجه ، في ثمانية او عشرة ايام . وهناك يحملون الحبّ على المركبات او على الدواب ، ويبيعون الكلكات بزهاء مئتي غرش ويعودون الى وطنهم . ومن حين الى حين يبتاعون من العراق السمن او غير ذلك من الموادّ ويحملونها على مراكب شراعية وينتقلون بها من محطة الى محطة فيعرضونها للبيع . ان قطع المسافة ما بين الفالوجه والدير يقتضي زهاء شهرين صعوداً .

وقدّر موسيل عدد السكان باربعة آلاف مسلم و٨٠٠ مسيحي و٢٠٠ يهودي ، في السنة ١٩١٢ .

وكان فيها من الجند ٤٠٠ بغال ، و١٢٠ جندرمة . ومما ساعد على رواج حركة الاشغال في الدير مرور بريد بغداد فيها ، لانه تحول عن طريق الشام الى طريق حلب فالفرات . فكان يقطع المسافة بين الشهباء وبغداد بثمانية ايام . وكان الساعي اذا تأخر عن ميعاد وصوله أُلزم بدفع جزاء نقدي ليرة عثمانية ذهباً . وكان مرجعه الى ملتزم البريد في الدير ، وهذا يقبض ١٠٥ ليرات عثمانية ذهباً تلقاء خدماته . فيسرج الخيل ويزهبها لقطع المراحل بالتناوب سريعاً .

وهذه كانت محطات السفر للمركبات بين حلب وبغداد عن طريق الدير : حلب ، نهر الذهب ، المسكنة ، الحمام ، السبخة ، تبني ، دير الزور ، الميادين ، هيت ، الرمادي ، الفالوجه ، بغداد .

